(١٣)

درس

رئيس(١) وزرائنا أستاذ ، تلاميذه الوزراء ، يعلمهم كيف يحكمون ، وكيف يديرون أمور الشعب وفقا لسياسته التى رسمها أو رسمت له ، وهو يراقب حكمهم وتدبيرهم ، فمن أجاد منهم أبقاه ، ومن قصر منهم أقصاه .

ووزير داخليتنا أستاذ ، تلاميذه المديرون والمحافظون وحكام الأقاليم ، يعلمهم كيف يديرون أقاليمهم طبقا للسياسة التى يمليها عليه رئيس الوزراء : أو يبلغها إليه رئيس الوزراء : فهو يجمعهم إليه كلما سنحت فرصة للاجتماع ، وهو يتصل بهم إذا لم يتح له أن يلقاهم ، وهو إذا لقيهم مجتمعين ، أو اتصل بهم منفردين ألقى عليهم دروسا ، ووجه إليهم أسئلة . فمن فهم الدروس وأحسن الجواب ، وأظهر ذلك بالسيرة العملية المرضية فى سياسة الأقاليم وحكمها رقاه . ومن لم يظهر منه سبق الفهم ، ولا مهارة فى الجواب ، ولا نشاط فى السيرة العملية ، تركه حيث هو حتى يظهر تفوقه .

ومن ظهر فى فهمه التواء ، وفى أجوبته انحراف ، وفى سيرته اعوجاج عن السياسة المرسومة والخطة المعلومة ، هبط به إلى إقليم دون إقليمه ، أو انتزعه انتزاعا من حكم الأقاليم .

وقد كان أمس يوما من أيام الدرس ، ويوما من أيام الامتحان ، فقد اجتمع المديرون إلى أستاذهم الجديد وزير الداخلية ، فسمعوا منه وتحدثوا إليه ، وتلقوا أسئلة وأجابوا عليها . وليس من اليسير أن نتعرف بالتفصيل

---

(١) ٢٧ — ٣ — ١٩٣٣ عدد ٢٣٤٦ .

موضوع الدروس والامتحان وإن قالت الصحف أمس واليوم كما تقول دائما إنالأمن العام كان موضوع الحديث فى هذا وذاك ،ولكن من المرجح إن لم يكن من المحقق أن الدرس الذى ألقى صباح السبت على المصريين جميعا وعلى وزراء العالم كله ، ورجال الإدارة فيه ، كان موضوع الحديث فى درس أمس . ولعلك تذكر أن هذا الدرس قد ألقى فى الهواء الطلق ، ولم يكن محاضرة يكثر فيها الكلام ، ولا مناظرة يتعقد فيها الحوار ، وإنما كان درسا عمليا أشبه بالتمرينات التى يؤخذ بها الطلاب فى فصول الدرس . وكان موضوعه معقدا بعض التعقيد .

زعيم أو زعيمان يزوران شعبا يحبهما ، والشعب يلقاهما بأروع مظاهر الحب لهما والسخط على خصومهما . والحكومة تكره حب الشعب لزعمائه، وتشفق من سخط الشعب على سادته القاهرين له ، وتريد أن تريح نفسها من مظاهر الحب للزعماء والسخط على القاهرين ، لأن هذه المظاهرة تكذب ما شاع وذاع وملأ الأسماع ، وطبق آفاق الدنيا ، وتردد فى أجواء السماء من أن الشعب لم يبق له إلا زعيم واحد يحبه ويفنى فيه ، ويفديه بالأمهات والآباء ، وبالبنات والأبناء ، وبما كان يملك أيام الرخاء ، وبما لا يملك منذ ألم به الشقاء . وهذا الزعيم هو رئيس الوزراء . فكيف التخلص من هذه المظاهرة ؟ وكيف الوصول إلى إقصاء الزعيمين عن هذا الشعب الذى خيل إلى الحكومة أنه يحبها ويهواها ؟

فلما ظهر له زعيماه القديمان ، تبين أنه كان يعبث بالحكومة ، أو أن الحكومة كانت تعبث بنفسها ، وأن هذا الشعب ما زال مقيما على عهده لزعمائه ، فهو بهم كلف ، ولهم مستجيب .

هذه هى المشكلة التى كانت موضوعا للتمرين يوم السبت . وأنت تعرف كيف حلها وزير الداخلية ! وكيف حلت له بخطف الرئيس وصاحبه . وقد وقع هذا الحل البديع من غير شك موقع الغرابة فى نفوس الطلاب من المديرين

وحكام الأقاليم ، فقد كانوا يعلمون أن الضروريات السياسية تبيح طائفة من المحظورات يأباها الدستور ، وينكرها القانون ؛ ويتحرج منها النظام . تبيح الضرب على أيدى الناس بالحق وبالباطل ، وتبيح التحرش بهم ، والتنمر لهم . تبيح إلقاءهم فى السجون من غير تحقيق . تبيح إخضاعهم للعذاب بغير حساب . تبيح تسخير أموالهم لمعونة الأحزاب ،وتسخير أشخاصهم للاحتفاء بالوزراء ؛ والتوقيع بأسمائهم على ما يحبون وما يكرهون .

كانوا يعلمون هذا ، ويأتون منه ما تدعو إليه الضرورة أو تقتضيه المنفعة ، أو تمس إليه الحاجة . وربما تهالكوا عليه ، واستبقوا إليه ليبلغوا من رضى الوزير عنه وعطفه عليهم ، وإكباره لكفاياتهم ما يريدون .وربما كانوا يعتقدون أن ليس بشىء من هذه المحظورات بأس ، فهى مظهر من مظاهر القوة ، ولون من ألوان السلطان . وقد كان مألوفا فى مصر قبل أن تأخذ مصر بالأساليب الحديثة فى الإدارة والحكم . والرجوع إلى العهدالقديم شىء مرغوب فيه من وقت إلى وقت لأنه يجددالنشاط ويرد الشباب :ويعيد ذكرى الماضى ، والإنسان مشغوف بالرجوع أحيانا إلى الماضى ، ولكنهم لم يكونوا يقدرون فى يوم من الأيام أن الخطف والاختلاس يصلحان لأن يكونا من أساليب الحكم .

فالخطف مظهر من مظاهر الضعف.والقوة أخص ما تحرص الحكومات على أن تمتاز به من المظاهر . وفى الخطف مساس ظاهر جدا بالأخلاق . والحكومات شديدة الحرص على أن تظهر — ولو لخداع الناس — شيئا من حماية الأخلاق ورعايتها . والخطف شىء تعده القوانين من الآثام الثقيلة جدا ، وتشتد فى معاقبة الخاطفين ، ولعلها لا تفرق بينهم وبين قطاع الطريق العام . فلم يكن يخطر للمديرين أن القاعدة المشهورة « الغاية تبيح الوسيلة » تكفى لإباحة الخطف على أنه أسلوب من أساليب الحكم والمحافظة على هيبة الحكومات .

فلما خطفت(١) الحكومةالمصرية زعيمالأمة المصريةوصاحبه، اضطربت نفوس المديرين، واختلطت آراؤهم إلا فريق الممتازينمنهم طبعا ، وأخذوا يسألون أنفسهم : ماذا نصنع منذ اليوم؟ أنخطف أم لا نخطف ؟ أنسرق الناس أم لا نسرقهم ؟ حتى كان درس أمس . وأكبر الظن أن الخطف شيءيعاقب عليهالأفراد والجماعات ، ولكنهيباح للحكومات ، والحكومات الدستورية خاصة .

ولابد أن يكون هذا التفسير قد فصل تفصيلا وافيا ،لأن ذكاء الطلاب متفاوت ، فمنهم من تكفيه الإشارة ،ومنهم من يحتاج إلى البسط والتطويل. والأستاذ الذى يبلغ من البراعة مبلغ وزير داخليتنا مضطر إلى أن يقيس درسه

---

(١)كان حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا زعيم حزب الوفد قد قام برحلة إلى الصعيد وفى صحبته مكرم عبيد . وكان الشعب يخرج لتحيته والترحيب به والهتاف بحياته وحياة الوفد . وكان الزعيم يلقى الخطب الحماسية فى كل بلد يحل فيه ، داعيا إلى الجهاد والكفاح ، ومتعرضا للأذى من رجال الإدارة . وقد ألقت الحكومة القبض على الكثيرين ومن بينهم نواب وفديون سابقون ، بتهمة التظاهر ، نذكر منهم بشارة أندراوس نائب الأقصر سابقا ، والشيخ محمد موسى الأقصرى لأنه أنشد بين يدى الرئيس الجليل قصيدة جاء فيها :

سر فى طريقك رافعا علم الجهاد ولا تخف
يا مصطفى أنت الزعيـ م وأنت عنوان الشرف
والشعب آمن بالزعا مة والكرامة واعترف
هو لا يميل مع الهوى ويراه بعد من السرف
عن نهج سعد لا يحيد ومصطفى نعم الخلف

وبعد أن زار النحاس أسوان وادفو والأقصر وقنا ، أراد أن يواصل الزيارات فى بقية بلاد الصعيد ، ولكن الحكومة أمرت بفصل عربة السكة الحديد التى كانيستقلها الرئيس وألحقتها بجرار انطلق بها إلى القاهرة رأسا دون توقف وبأقصى سرعة .

بأصحاب الذكاء المعتدل ، لا بالمسرفين فى الذكاء ، ولا بالمسرفين فى قلة حظهم منه ! فلابد إذن من أنه قسم لهم الحكومات إلى قسمين : أحدهما هذه الحكومات الضعيفة التى تواجه المصاعب من أمام، لا من وراء، المترددة التى تلقى خصومها بالصراحة ، لا بالمداورة والكيد ، السمجة التى لا تفرض نفسها على الناس فرضا ؛ وإنما تقيم فيهم ما أحبوها . فإذا أحست منهم نفورا تنحت لهم عن مناصب الحكم . وهذا النوع من الحكومات قد بليت به مصر فى عصر من العصور ، فساءت حالها ، واضطربت أمورها ، وأوشكت الفوضى أن تفسدها ، وهو نوع يألفه الأوربيون والأمريكيون ، ويكلفون به ، ولا يجنون منه إلا الشر والنكر ! !

أما القسم الثانى فهو هذه الحكومات القوية التى لا تستقبل المصاعب ولكن تستدبرها ! الحازمة التى لا تحب الصراحة وإنما تؤثر عليها المداورة والالتواء ، الرفيقة التى تحكم الناس سواء أرادوا أم لم يريدوا . ولا تتخلى عن الحكم إلا إذا انتزعت منه انتزاعا .

فاما القسم الأول من الحكومات فلا يحب الخطف . وأما القسم الثانى فلا يحب غير الخطف .

هل اقتنع الطلاب بهذه الآراء ؟ أم هل خرجوا من قاعة الدرس كما دخلوها ، وما تزال نفوسهم مضطربة ، وآراؤهم مختلفة ؟ علم هذا عند الله وعند المديرين ، ولكن الشىء الذى لا شك فيه هو أنهم أظهروا الاقتناع والاطمئنان ، وسيطيعون فيحسنون الطاعة ، وسينفذون فيحسنون التنفيذ ، وسيحتفظون لأنفسهم وللحكومات المقبلة بما قد يكون لهم من رأى خاص .

وإذن فسيتعرض الزعماء للخطف أينما ساروا ، وحيثما وجهوا ، ولكن الحاجة تفتق الحيلة كما قال القدماء . وما دامت الحكومة قد جعلت الخطف وسيلة من وسائل الحكم ، فمن يدرى ؟ لعل الزعماء لا يفقدون وسيلة يتقون بها أن يخطفوا ، وأن يسير بهم القطار فى هذه السرعة التى تعجز عنها الطير ولا يؤمن منها الضير .